

المقاومة المدنية- نظرة أولى

Civil Resistance: A First Look (booklet)

ICNC

Translation: JPD Systems Inc., September 2020

المقاومة المدنية

ما هي المقاومة المدنية؟ إنها طريقة يتوسلها أفراد من عامة الشعب ليناضلوا في سبيل الحصول على حقوقهم وحريتهم وتحقيق العدالة من دون استخدام العنف. ويلجأ الأشخاص المنخرطون في المقاومة المدنية إلى أساليب متنوعة، مثل الاضرابات، والمقاطعات والمظاهرات الحاشدة وغيرها من الإجراءات بغية إحداث تغيير اجتماعي وسياسي واقتصادي واسع النطاق. وقد أُطلقَ على المقاومة المدنية أسماء مختلفة في أرجاء العالم كافة، فُعرفت بالنضال اللاعنفي والعمل المباشر وسلطة الناس والتحدى السياسي والتعبئة المدنية - إنما وبغض النظر عن المصطلح المستخدم، تبقى المحركات (الديناميات) الأساسية للمقاومة المدنية نفسها من حيث الجوهر.

تتسم حركات المقاومة المدنية بقوة هائلة لأنها تدعو إلى مشاركة جماعية في تحركات تقاوم القمع من خلال تقديم رؤية جديدة لمجتمع أكثر حرية وعدلاً وربما تزعزع ولاءات الناس الذين يفرضون النظام القديم. عندما يختار الشعب أن يضع حداً لتعاونه مع الحكام الظالمين، تُصبح إدارة نظامهم مكلفة للغاية. ففي الواقع، عندما تُقرّر شريحة كافية من الشعب العصيان قد يصبح النظام متزعزعاً وغير مستدام، ويواجه عندئذ خيارين إما أن يتغير أو أن ينهار. فحتى عندما كان معارضو المقاومة المدنية مدججين بالسلاح ومزودين بتمويل هائل، غالباً ما عجزوا عن التصدي للمقاومة المدنية والعصيان الجماعي المستمر والاضطرابات المدنية المتأتية عن أعمال التحدى السلمي الاستراتيجي والواسعة النطاق.

لهذا السبب، حققت حركات وحملات مقاومة مدنية عدّة نجاحاً في مواجهتها خصوم كثيرين. ففي كلِّ عقد من القرن الماضي، وعلى امتداد القارات الست، نجحت الحركات الشعبية مستخدمةً استراتيجيات اللاعنفي في الإطاحة بالأنظمة القمعية، وقاومت بنجاح الاحتلال العسكري، وأمنت لمجتمعاتها عدالةً وحريةً فضليين. فعلى سبيل المثال، أدت المقاومة المدنية دوراً محورياً في إنهاء نظام الفصل العنصري في جنوب أفريقيا؛ وأسهمت في الدفاع عن حقوق المرأة والحقوق المدنية وحقوق العمل وإقرارها في الولايات المتحدة؛ وأسقطت حكماً طغاةً في الفلبين وشيلي وإندونيسيا، وصربيا وغيرها من البلدان؛ وعرقلت الاحتلال الأجنبي في الدنمارك وتيمور الشرقية؛ وأدت دوراً فعالاً في نيل الهند استقلالها عن بريطانيا؛ كذلك قلبت معادلات الانتخابات المزورة في أوروبا الشرقية، وأنهت الاحتلال السوري في لبنان، واستخدمت في بلدان أخرى عدة لإرساء حقوق الإنسان والعدالة، والحكم الذاتي الديمقراطي.

" يكمن الهدف الرئيس من النضال في جذب الانتباه. فالنضال في زاوية لا ينتبه أحدٌ لوجودك فيها أشبه بجهد غير مثمر. إذا أردت أن تناضل فعلاً يجدر بك أن تستقطب أكبر قدر ممكن من الاهتمام لقضيتك "

مخوسيلي جاك، قائد حملة مقاطعة المستهلكين ضد الإبادة الجماعية في جنوب إفريقيا

THE CONSUMER BOYCOTT CAMPAIGN AGAINST APARTHEID IN SOUTH AFRICA

المقاومة المدنية مقابل اللاعنف الأخلاقي.

تشكّل المقاومة المدنية شكلاً من أشكال الخلاف السياسي. أمّا اللاعنف الأخلاقي فهو مجموعة من المبادئ التي تحظر استخدام العنف. والواقع أن المشاركين في بعض حركات المقاومة المدنية الناجحة، شأن حركة استقلال الهند وحركة الحقوق المدنية الأمريكية، دعوا إلى تبني اللاعنف الأخلاقي. إنما لا تتوافر مبادئ متأصلة في المقاومة المدنية بحد ذاتها تفرض على ممارسيها أن يتمسكوا بالعمل اللاعنفي لطبيعته المسالمة. ففي الواقع معظم المقاومين المدنيين على مر التاريخ لم يحركهم على الأرجح دافع اللاعنف الأخلاقي بل حقيقة تمثلت في كون المقاومة المدنية الوسيلة الوحيدة الفعالة لإطلاق نضالهم وربحهم.

النظرة الموحدة الانفرادية للسلطة مقابل النظرة التعددية لها

تسود في مجتمعات كثيرة نظرة انفرادية موحدة للسلطة (الرسم البياني 1) حيث تُعتبر عامة الشعب مرتبهة لنية حكومتها الحسنة وقراراتها ودعمها ولمؤسسات رسمية أخرى. وتُعدّ السلطة حكراً على قلة تتربّع على أعلى هرم القيادة وتمتلك الثروات الطائلة والقدرة على ممارسة العنف. يُنظر إلى السلطة الانفرادية على أنها دائمة تمُدّد نظامها من تلقاء نفسها وعصية عن التغيير. أمّا المقاومة المدنية من جهتها فمبنية على فرضية مختلفة كلياً ترى السلطة من وجهة نظر تعددية (الرسم البياني 2) حيث تبدو الحكومات وغيرها من الأنظمة المتمسكة بالسلطة معتمدة ومرتهنة بشكل عام بموافقة الشعب أو رضاه. من وجهة نظر التعددية، تُعتبر السلطة مبنية على أساس ركنه تفويض شرائح المجتمع بمجملها ومشاركتها القرار.



الرسم البياني 1: السلطة في رأس الهرم والشعب في أسفله يتلقى الأوامر



الرسم البياني 2: السلطة في رأس الهرم والشعب في أسفله يعطي الأوامر

ويتمسك نظام السلطة هذا بمرورته حيث يستمد قوته من تجديد مصادره وعبر تعاونه مع عدد كبير من المؤسسات والأفراد. إنطلاقاً من هذا المبدأ، تعتمد حركات المقاومة المدنية إلى تطوير استراتيجياتها مستندة

إلى وجهة نظر مفادها أن الأفراد الذين ينجحون في تنظيم تحالفٍ واسعٍ يضمُّ مدنيين من عامة الشعب ويعطّل عمل الدولة يمكنهم بسهولة أن يحيّدوها أو يعكسوها.

أعمال الإغفال والإتيان. لجأ المناضلون المدنيون، عبر التاريخ، إلى المئات من التكتيكات المتنوعة التي تندرج ضمن فئتين مختلفتين. أولهما أعمالُ الإغفال حيث يمتنع الأفراد عن القيام بأمرٍ يُتوقع منهم أو يُفترض بهم عادةً أدائها. تشمل الأمثلة على هذه الأعمال اضطرابات العمال ورفض تسديد الضرائب ومقاطعة الاستهلاك. أما أعمالُ الإتيان فهي تكتيكاتٌ يلجأ إليها الأفراد عندما يعمدون إلى القيام بأعمال لا يفعلونها عادةً أو ممنوع عليهم القيام بها. وتشمل الأمثلة على هذه الأعمال الاحتجاجات والمظاهرات الجماهيرية والاعتصامات وغيرها من أشكال العصيان المدني. والواقع أنّ التسلسل الاستراتيجي لهذه التكتيكات يزيد التكلفة التي يتكبدها خصم الحركة في سبيل الحفاظ على الوضع الراهن. قد تلهم هذا الأعمال أشخاصاً عاديين للانضمام إلى المقاومة بما أنّها تنبئ مجموعة واسعة ومتنوعة من التكتيكات - تبدأ من تحركات تضم مخاطر عالية ومخاطر منخفضة، وعامةً وخاصةً، مكثفةً أو لا مركزية - مما يتيح للأفراد المنتمين إلى معظم شرائح المجتمع فرصة المشاركة.

الوحدة والتخطيط والانضباط السلمي. تتمثل المبادئ الثلاثة لنجاح المقاومة المدنية بالوحدة والتخطيط والانضباط السلمي. وتُنمى الوحدة من خلال تعبئة شرائح متنوعة من المجتمع يعاني أفرادها مظالم مختلفة في الأساس، وجمعها حول مجموعة من الأهداف القابلة للتحقيق. أما التخطيط فهو التسلسل الاستراتيجي للحملات والتكتيكات المستند إلى تحليل دقيق للظروف وفرص إطلاق التحركات. وينطوي التخطيط أيضاً على استباق النكسات المحتملة ووضع خطط طوارئ لها. ونهايةً، يشتمل الانضباط السلمي على التزام استراتيجي باستخدام التكتيكات اللاعنفية وحدها، لأنّ العنف يحدّ من مشاركة المدنيين، ويلحق الضرر بشريّة الحركة نفسها، ويثبّت الدعم الدولي لها، ويقلّل فرص تحويل الولاءات من الدولة إلى المقاومة.

عشرة أسئلة

1- كيف نجح أفراد من عامة الشعب في التغلب على حكام طغاة سلطويين من خلال المقاومة المدنية؟

ما من حاكم قوي وسلطوي بالفطرة. يغدو الحكام أقوياء وسلطويين فقط عندما يقدم لهم الآلاف أو الملايين من مواطنيهم دعماً مباشراً أو غير مباشر. وكما يحافظ الحاكم على سيطرته هذه، يجدر بالشرطة والجيش والسلطة القضائية والبيروقراطية أن تؤدي عملها على أكمل وجه؛ ويجدر بالمواطنين المنتمين إلى شرائح المجتمع كافة أن يذهبوا إلى العمل بانتظام، ويسددوا الضرائب ويدفعوا بدلات الإيجار، ويشترخوا السلع من أسواق تدعّم الشركات التي تملكها الدولة أو التي تحمل تراخيص منها.

ويُفترضُ بالعاملين في الشحن والنقل والاتصالات والخدمات أن يستمرّوا في نقل البضائع وأداء الخدمات. ما أوردناه أعلاه أمثلة قليلة على المجموعات التي تقدّم في الغالب دعماً حاسماً ومهماً لتشغيل النظام وعمله.

لما كان منظمو المقاومة المدنية يعون هذا الأمر تماماً أخذوا يطوّرون استراتيجياتٍ تزعزع هذا الدعم وتحولّ دون إمكانية المحافظة على الوضع الراهن على حاله. فمن شأن تعبئة أعداد هائلة من الحشود لتعبّر عن معارضتها للنظام وتحتجّ ضده، أن تقوّض شرعية الحكام خصوصاً إذا لجأ هؤلاء إلى استخدام أسلوب القمع ضدّ المطالبين بحقوقهم. ومتى تنجح حركات المقاومة في زعزعة سيطرة الدولة على مواطنيها، تتوصّل إلى رفع تكلفة الحفاظ على النظام بحيث يشرع مناصروه أنفسهم في التشكيك بمستقبله. وما إن تُقوّض ولاءاتهم لهذا النظام، حتّى يغدو أيّ شكل من أشكال القمع صعب الممارسة والتطبيق.

2- كيف تبدأ المقاومة المدنية؟

تبدأ حملات مقاومة مدنيّة ناجحة كثيرة ببناء قدرات الأفراد العاديين على القيام بالتحركات. وقد تكتسي التكتيكات المحلية المنخفضة المخاطر التي تهدف إلى تنظيم البشر وبناء الوحدة الناس أهمية كبيرة. فعلى سبيل المثال، قبل أن يطلق غاندي حملة المقاومة المدنية الكبرى الأولى في الهند، أمضى أشهراً وسنوات يزور عامة الشعب ويتحدّث معهم، ويستعلم عن مظالمهم وآمالهم ومخاوفهم. فنمّى لديه حساً يكشف له ما يتطلّبه كسب ولائهم وتعاونهم. كما شجّع الناس على الانخراط في "العمل البناء" أيّ خدمة المجتمع التي ولدت لديهم حسّ الاعتماد على النفس، خصوصاً لدى أولئك الذين فقدوا الثقة في الدولة إنما عجزوا في السابق عن إبداء ردّ فعل حيال ذلك.

ما إن تنجح الحملات في بناء القدرات الكافية للانخراط في أشكال المقاومة المدنية المباشرة، غالباً ما تبدأ بالتحركات الموجهة نحو القضايا المحلية التي تخلف صدى يتردّد لدى جمهور أوسع. فعلى سبيل المثال، بدأ منظمو حركة التضامن في بولندا بإضراب العمّال في واحد من أحواض بناء السفن. وعندما حقّقوا نصراً في قضية واحدة أنشأوا نقابة عمالية مستقلة، فترك هذا الانتصار تأثيراً نفسياً هائلاً على البولنديين في أنحاء البلاد كافة واكتسبت الحركة نتيجة لذلك، قوة ودعماً. ومن المنطلق نفسه، اكتسبت حركة الحقوق المدنية في الولايات المتحدة، زخماً بعد اعتصامات ومقاطعات ناجحة وضعت حدّاً للفصل العنصري داخل المتاجر

والحافلات في عددٍ قليلٍ من المدن في جنوب الولايات المتحدة. وبفضل هذه النجاحات، أظهرت الحركة قوة المقاومة المدنية، وسرعان ما استقطبت الاهتمام والمتابعة على الصعيد الوطني.

3- كيف أنظّم الاحتجاجات؟

يُفترضُ بالمخططين الاستراتيجيين في حركة المقاومة أن يحدّدوا أهدافهم ونقاط قوتهم وضعفهم وقدرات حركتهم وخصومهم وماهية المساعدات التي قد تقدّمها الأطراف الثالثة والجهات الخارجية. فعندما تتوصّل الحركة إلى تحديد أهدافها القصيرة والمتوسطة والطويلة المدى بشكل واضح وتقوم بإجراء تحليل واقعي مفصّل ومنهجيّ لوضعها، ستجد نفسها في موقف أفضل بكثير لاختيار التكتيكات التي تبغي اعتمادها. وفي هذه المرحلة، إذا اختارت الحركة المظاهرات الاحتجاجية كتكتيك رئيس وأرادت أن تتعلّم كيفية إنجازها، تتوافر لها موارد كثيرة تسمح بتفصيل الأبعاد الفنية والتكتيكية لها تفصيلاً دقيقاً.

4- ما الخيارات الأخرى المتاحة باستثناء الاحتجاجات؟

يعتقد الكثيرون أن الاحتجاجات هي النشاط الأساسي لحركات المقاومة المدنية. إلا أنّها في الواقع واحدة من تكتيكات كثيرة ومتعددة قد يلجأ إليها المقاومون المدنيون في نضالهم. وتشتمل الأعمال اللاعنفية على أكثر من مئتي تكتيك محدد يمكن الاختيار من بينها. وتشكّل المقاطعات على أنواعها (الاستهلاكية والسياسية والاجتماعية) والاضرابات وتبطين العمل، ورفض تسديد الإيجارات والضرائب والرسوم، ورفع العرائض، والعصيان المدني، والاعتصامات والحصار وتنمية المؤسسات الموازية، بعضاً من الأمثلة على التكتيكات الأخرى للمقاومة المدنية.

يرتهن اختيار التكتيكات وتسلسلها بتقييم الحركة لوضعها وبما تمتلك من قدرات وأهداف. إذا لم تكن الحركة قوية وجبارة، فمن المستحسن أن تلجأ إلى التكتيكات المتفرقة والمنخفضة المخاطر، شأن المقاطعات أو عرض الرموز من قبل مجهولين كي تتوصّل إلى بناء قدرتها الخاصة، وإيصال رسالتها، و/ أو تعطيل الخصم. في مرحلة لاحقة أيّ حينما تكتسب قوة أكبر، تراها قادرة على اتخاذ أشكال تحركات أكثر حدة وزخماً مثل التجمعات والمسيرات والمظاهرات الاحتجاجية أو العصيان المدني الشامل.

من المهم ألا يغفل عنّا البتة أنّ الاحتجاجات لا تعني المسار الأفضل أو الوحيد للتحركات اللاعنفية بمجرد كونها أكثر الأعمال شيوعاً لدى الأشخاص الذين يودّون اللجوء إلى المقاومة المدنية. وتتعدّد التكتيكات الأخرى، بحسب الظروف والأوضاع، فتعود بنتائج أفضل وتفرض تكلفة أدنى على الحركة. من هنا يكتسي الإبداع والتفكير الاستراتيجي أهمية كبرى في تحديد التكتيكات المقترضة استخدامها.

5- ما الحلّ إذا كانت الحركة تفنقر إلى قائد ملهم مؤثر؟

شنت حركات تاريخية كثيرة حملات مقاومة مدنية فعالة من دون قادة ملهمين. فقد نجحت الحركة المناهضة لسياسة الفصل العنصري في جنوب أفريقيا في تحقيق مكاسب كبيرة بينما كان قائدها مسجوناً بعيداً عنها وعاجزاً عن إدارتها. وتشكّل معرفة كيفية تمثيل المشاركين في الحركة والإصغاء إليهم

والدراية في الموازنة بين التكاليف والمخاطر التي تحفُّ بها مسارات العمل البديلة، والتشارك في عملية صنع القرارات مع القادة المحليين، مجتمعةً الصفات الأهمّ توافراً لدى القائد الفعلي للحركة من الشخصية الساحرة الملهمة والقدرة على التكلم بإقناع.

أضف إلى ذلك، ينطوي الإفراط في الاعتماد على القادة الملهمين على مخاطر جدية. ففي بعض الأحيان، يعمد بعض الحكام إلى استمالتهم واغرائهم بمشاركتهم السلطة أو إلى إلقاء القبض عليهم وزجهم في السجن. وفي هذا الإطار تنتظم الحركات التمثيلية المرنة بحيث تنجح في انتقاء قائد جديد في حال تعرّض قادتها الحاليون للتهميش.

6- ماذا لو كنت أظن أن المقاومة المدنية لن تنجح في بلدي؟

لا تحقّق المقاومة المدنية نجاحاً دائماً لكنّها جنّت ثماراً في الكثير من البلدان في أرجاء العالم كافة حيث شكك الخبراء وغيرهم في أنها تحرز أيّ تقدّم. فقد صنّف الجنرال التشيلي أوغستو بنوشييه واحداً من أكثر الحكام الدكتاتوريين عنفاً ووحشيةً في العالم لذلك ساد الظنُّ بأنّ المقاومة المدنية لن تؤدي دوراً محورياً في تنحيه إنما جاءت النتيجة معاكسةً. وقليلون هم من توقّعوا أن ينجح الضغط السلمي في إسقاط الدكتاتور الصربي سلوبودان ميلوسيفيتش الملقّب بجزار البلقان. فلما أمر ميلوسيفيتش قواته العسكرية وعناصر الشرطة بقمع مئات الآلاف من المتظاهرين الذين كانوا يدعون للإطاحة به في العام 2000، رفضت القوات الأمنية الامتثال لأوامره ومواجهةً حشود المواطنين الضخمة. فلم يجد عندئذٍ الدكتاتور أمامه إلا خياراً واحداً أيّ التنحي عن السلطة.

إن كنت لا تزال مشككاً في قدرة المقاومة المدنية على تسجيل نجاح في وضع بلدك لذا الجأ إلى التفكير في حلول بديلة ممكنة شرط أن تكون واقعية. فالواقع أنّ إصلاح النظام السياسي من الداخل، والمشاركة في الانتخابات، وتقديم التماس أمام النظام القانوني، ومفاوضة الخصوم والتحوّل معهم، ومناشدة الجهات الدولية الفاعلة طلباً للدعم ومحاولة العصيان المسلح شكّلت كلّها خيارات اعتمدت في أنحاء مختلفة من العالم. وجاءت النتيجة ذاتها. فيما يبقى نجاح المقاومة المدنية مشككاً به، ينطبق المبدأ نفسه على كافة الخيارات الأخرى الممكنة.

عندئذٍ يقتضي قرار المعارضة أو المجموعة المنشقة اختيار مسار يضمن الفرصة الكبرى لجذب أتباع متنوعين، وتحدي شرعية الحاكم الظالم، والتهرّب من القمع أو تحييده، وزرع الانقسامات بين المدافعين عن النظام الحالي وتغذيتها. ففي الواقع، بحثت مجموعات معارضة كثيرة عبر التاريخ في هذه الخيارات كلّها واختارت في نهاية المطاف تبني المقاومة المدنية رغم أنها استخدمت في بعض الأحيان بالتزامن مع وسائل تقليدية لتحديثاً تغييراً سياسياً جذرياً، مثل الانتخابات والتحديات القانونية والمفاوضات وإصلاح النظام السياسي من الداخل.

7- ما العمل لو لجأ الخصم إلى العنف؟

يجدر بك أن تتوقع لجوء الخصم في مرحلة ما إلى العنف. فطالما كانت هذه الحال على مرّ التاريخ. إلا أنّ لجوء الخصم إلى العنف لا يعني بتاتاً فشل حركة المقاومة المدنية. فهذه الحركات تتعامل مع القمع العنيف بطرائق متنوعة من شأنها أن تخفّض فعالية العنف و/أو تقلّبه على مستخدمه أي الطاغية نفسه.

أولاً، كي تتجنّب حملات المقاومة المدنية القمع العنيف أو تتغلّب عليه تراها تلجأ إلى تكتيكات يصعب إخمادها بالعنف. فعلى سبيل المثال، يشكّل تكتيك "مقاطعة المستهلكين" الذي يتوسّله الأفراد ليمتنعوا عن شراء بضائع معيّنة مستهدفة، طريقة يصعب التصدي لها وقمعها لأنها تتسم بطابع لا مركزي يصعب على النظام التأكد من هوية المشاركين في المقاطعة وغير المشاركين فيها. إذا تعرّضت المظاهرات الاحتجاجية أو غيرها من التكتيكات الجماهيرية والمكثفة إلى القمع تغدو عندئذٍ خيارات المقاومة الغير السياسية أو التكتيكات اللامركزية والغير المادية مثل رفض دفع الرسوم أو الضرائب أو حتى الإضراب العام، المسارات الفضلى للحركة.

ثانياً، قد تستخدم حركات المقاومة المدنية أساليب مبتكرة جديدة لتقلّب أساليب قمع الخصم عليه. ففضح عمليات القمع أمام العالم أجمع ونشر هذه الأعمال وتوثيقها عبر الصور والقصص داخل البلد من شأنها أن يحوّلها إلى تدابير ذات كلفة عالية يتكبّدها النظام أكثر من الحركة من حيث سمعته العالمية والاستثمارات الدولية. لا تتقلب جميع أعمال القمع بالضرورة على مرتكبيها إنما عندما تنجح الحركة بتعقيد بعض أعمال القمع وتأخيرها والكشف عن طبيعتها البغيضة، تتمثّل نتائجها بخسارة النظام خسارة هائلة للدعم الجماهيري والدولي.

ثالثاً، نجحت حالات المقاومة المدنية في بعض البلدان شأن الفلبين في العام 1986، وشيلي في العام 1988، وصربيا في العام 2000، وأوكرانيا في العام 2004، حيث انشق عناصر من قوى الأمن وانضموا إلى المعارضة، ما قوّض قدرة النظام على ممارسة أعمال القمع وشلها نهائياً. والحقيقة أنّ هذه الانشقاقات في صفوف قوى الأمن نتجت عن جهودٍ متعدّدة طويلة الأمد بذلتها حركات المقاومة التي صمّمت على تغيير ولاءات قوى الأمن وقلبها على النظام.

"لهذا السبب تحديداً لم يأت القمع بنتائج مثمرة.
فهو أشبه بقانون نيوتن الثالث: لكل فعل رد فعل.
عندما يرتفع مستوى القمع ترتفع معه القدرة على المقاومة."
إيفان ماروفيتش

8- ماذا لو عجزت عن إقناع خصومي؟

إنّ إقناع المسؤولين الأساسيين عن أعمال القمع وصنّاع القرار فيه لا يُعتبر ضرورة جوهرية لتحقيق الفوز، إنما يتحتّم عليكم إقناع بعض مؤيدي الخصوم.

تذكروا أن المقاومة المدنية تستمد قوتها من قدرتها على تغيير معتقدات وسلوك الآلاف وعشرات الآلاف من الأفراد الذين يدعمون، من خلال أفعالهم وأعمالهم، العنف بشكل مباشر أو غير مباشر. عندما تضعف مصادر قوة خصمك، لن يترك مدى اقتناعه أو انعدامه أي تأثير يحدث فرقاً. فقد تفوض سلطته بحيث يدرك أنه يعجز عن السيطرة على النتائج ويجد نفسه بالتالي مجبراً على التفاوض والانتقال إلى نظام جديد.

فعلى سبيل المثال، تسببت مقاطعة الشركات التي يديرها البيض من قبل حركة مناهضة الفصل العنصري في العام 1985 في مدينة بورت إليزابيث بجنوب أفريقيا، بخسائر فادحة أفضت إلى الضغط على الحكومة لتغيير سياساتها. ربما لم تقتنع هذه الشركات بأهداف الحركة وحملتها لكنها أدركت حتماً أنّ تقبلها لبعض هذه الأهداف يعود عليها بالربح أكثر من تشبثها بدعم أعمال القمع الممارسة من قبل الحكومة.

"في الواقع كان التغيير في جنوب إفريقيا ثمرة التنظيم الجماهيري الذي مارس ضغطاً هائلاً على الدولة... فتدفعها في نهاية المطاف إلى التغيير.... ونجح في توليد حالة من الجمود فيها، وأفضى بها إلى طريق مسدود تعجز فيه عن الاستجابة".

د. جانيت شيري

9- هذا المسار يستغرق وقتاً طويلاً. ماذا لو لم يسعنا الانتظار؟

لا تستغرق المقاومة المدنية دائماً وقتاً طويلاً لتخلف تأثيراً ملحوظاً. ففيما لم تبلغ حركة التضامن في بولندا السلطة إلا بعد مرور حوالي عشرة أعوام على تنظيمها، نجحت المعارضة في الفلبين لجهتها بالإطاحة بالدكتاتور فرديناند ماركوس في غضون بضعة أعوام على تنظيمها. إذاً فالعامل الذي يحدد نجاح المقاومة المدنية لا يتمثل بمرور الوقت إنما بقدرة الحركة على اتباع مسار عمل موحد واستراتيجي.

10- كيف لنا أن نفوز؟

تتعزز فرص الفوز متى توصلت حركتكم أو حملتكم إلى تطوير وحدة شعبية وتخطيط دقيق وانضباط لاعنفي.

تعتبر الوحدة عنصراً حاسماً لأن حركات المقاومة تصبح قوية متى تمثل إرادة الأغلبية والتزامها. من هنا، تتجلى ضرورة التنبه إلى أن المشاركة في الحركة المدنية طوعية؛ فالأفراد ينضمون إليها ويتحملون مخاطرها لأنهم يؤمنون بمبادئها. إنما، في حال غابت عنها الوحدة أو اتسمت قضيتها بالغموض أو شابها الشك سيختار الكثيرون عدم المشاركة فيها. وبوجه عام، تمكنت حركات المقاومة المدنية الناجحة من جمع مكونات المجتمع كافة من رجال ونساء، وأطفال وكهول وشيوخ؛ وأفراد من مختلف الخلفيات الدينية والعرقية، وطلاب وعمال ومفكرين، ورجال أعمال ومستثمرين وغيرهم.

أما التخطيط فيكتسي طابعاً جوهرياً أيضاً، ذلك أنّ المقاومة المدنية عبارة عن منافسة بين بطل مدافع عن الحقّ شأن حملة أو حركة أو مجموعة مدنيّة وخصمه. وفي منافسة مماثلة، يشكّل التنظيم والاستراتيجية ضرورةً حتميةً لصوغ وتوجيه القوة التي تنظّمها الحركة. ففي المقاومة المدنية يتخذ القادة قرارات تكتيكية واستراتيجية كثيرة شأن تقييم كيفية بناء الموارد، وكيفية استغلال نقاط ضعف خصومهم، وكيفية الدفاع عن أنفسهم من الإجراءات المضادة المتخذة ضدهم.

فالقرارات الصائبة فلما تُتخذ بطريقة تلقائية عفوية. والواقع أنّ التخطيط الفعّال يتطلّب نوعين من المعرفة. أولاً، يحتاج الاستراتيجيون إلى معرفة مفصلة للظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي يواجهونها كما يحتاجون إلى فهم مصالح مختلف فئات المجتمع وتطلعاتها وتوقعاتها. ثانياً، يحتاج الاستراتيجيون في حركة المقاومة إلى معرفة كيفية عمل المقاومة المدنية، وهي دراية يكتسبونها من خلال خبراتهم الشخصية أو من المصادر كالكتب والأفلام والانترنت ومن التواصل مع آخرين ذوي الخبرة في مجالي المقاومة المدنية والتنظيم السياسي.

يعدّ الانضباط اللاعنفى بدوره عنصراً حاسماً لأن العنف الممارس من قبل الحركة يقوّض فعالية عملها ويُفضي في العادة إلى إطلاق شرارة الإجراءات القمعية الممارسة ويبرّرها تبريراً واقعياً. أضف إلى ذلك، أنّ انخراط حركة المقاومة في العنف غالباً ما يدفعها إلى خسارة مشاركة أفراد المجتمع الذين يرفضون تحمّل مخاطر العنف الواضحة. ونهايةً، إذا لجأت حركة المقاومة إلى استخدام العنف ضدّ عناصر الشرطة والجيش يستحيل عليها عندئذٍ تقسيم ولاءات المدافعين عن النظام وتخفي بالتالي أيّ علامة من علامات التعاطف غير المعلن مع الحركة بين هؤلاء المدافعين عنها.

والواقع أنّ هذا المنهج يتعارض مع الديناميكية التي تطلقها المقاومة المدنية حيث تنسّم قضية الحركة – أيّ بناء مجتمع أفضل وذات حرية أكبر يستفيد منه الجميع- وأعمالها التي تحرّك شجاعة الأفراد العاديين من كافة الخلفيات، بجاذبية تستقطب عدداً كبيراً من المدافعين عن السلطة ومن الراغبين في وضع حدّ للنظام وإسقاطه.